(*)

لمطالعة السطور القديمة وقعٌ خاص على كاتبها إذا ما انبعثت معانيها فيه و هو يزفِر شجو الحاضر المماثل !

بين يديك مزيج من فَوح البَوح وفيح الهمّ، تبعثرا على شكل كلمات .. و كذا تكون الكلمات إذا كانت شخصية، لأن من يكتب عن نفسه يميل به قلمه غالباً إلى النجوى و بثّ الهموم كما قال عبد الوهاب مطاوع، فالسطور التالية ليست مقالة ناجزة و لا خاطرة منمَّقة و لا رسالةً رصينة، بل هي (بوح شخصي) أسامر به نفسي – و أنتم و نفسي شيء واحد – :) ، و هي بذلك ستصبح نوعاً من إزالة الكُلفة القرائية !

أعترف لك .. مقدِّمة طويلة و متفذلِكة .. أرجو أن تواصل القراءة !

أصل هذه الكلمات رسالةٌ واتسابية مختصرة نُشرت قبل عامين عبر رسائل (فتيان العزائم) ضمن سلسلة (عزائم للفتى الصائم) .. دفعتني لنبشها هذه الفعالية الإيمانية الرمضانية المباركة التي تنعَّمت بزيارتها عابراً، و تنسَّمتُ بين أفيائها ما استطاعت رئة المحبَّة اختزانه من جمال اللُّقيا الأخويَّة و جلال السُّقيا الإيمانية ...

لننتقل إلى الموضوع ..

من أبرز الأيقونات الإيمانية في المشهد الرمضاني البهيج (صلاة التراويح)، و ما ترسمه من تفاصيل بديعة و تصنعه من تفاعلات متنوعة بين الناس بمختلف أعمارهم .. فلعلَّك تذكر الأيام التي تسبق دخول رمضان حين يبدأ كثير من الشباب المحبّ للخير بالتساؤل عن معايير المساجد التي سيصلُّون فيها، و تتعدَّد الخيارات و الإختيارات بين من يفضِّل جمال الصوت لتأثره به، و آخر يريد إنجاز (ختمة سماعيَّة) للقرآن في قيام رمضان، و ثالث يتنقَّل بين المساجد بحثاً عن السكينة و حضور القلب، و آخر يسعى للجمع بين تلك الخيارات التي لا تتاح بمثل هذه الجودة إلا في رمضان .

لننتقل معاً لمشهد متكررٍ آخر غير بعيدٍ عن هذه الأجواء المبهجة، لكن من داخل الحيز الرمضاني .

حينما يجتمع أولئك الشباب على موائد الإفطار الجماعي –تحت مسمَّى أو بدون مسمَّى– .. لن تخطئ أذنك بعض الحديث عن تجاربهم في ليالي القيام منذ بداية رمضان ..

حديثٌ عن قارئ متألِّق ظهر في مسجدٍ ما ..

و إمام لم يملك نفسه من البكاء عند آية ما..

و تساؤل عن قارئٍ معيَّن أين يصلّي هذه السنة ..

و قصة متفنِّن آخر أدهشهم عندما قرأ آيةً بطريقة غير معهودة في الوقف و الإبتداء ..

و ربما لاحظت علامات الإجلال باديةً على وجوههم تأثراً من قصة ذلك الماهر الذي قرأ آيةً برواية، فتنبَّهوا لمعنى إضافي فيها يعونه لأول مرة ...

حسناً ..

إذا التقطت ذاكرتك شيئاً من ذكرياتٍ مشابهة – شخصية كانت أو سمعية، في مسجدٍ أو جلسة تدبريَّة جماعية، أو ذات اتكاءة موفقة، أو ...الخ – فاسترسل معها وتطعَّمها متلذذاً حتى آخر قطرة .. و دع عنك هذه السطور جانباً لبعض الوقت ☺ ..

...

أنبهك هنا أنَّني فيما ذكرته سابقاً لست مبالغاً أو مثالياً، و تلك المشاهد ليست تصوراً طوباوياً أو أحلاماً جميلة، و أظنك عايشت بعضها مثلي، غير أن الإشكال الذي ينبغي التنبه له حقاً أننا في كثير من الأحيان لا نستثمرها بشكل جيد للارتقاء بالنفس في معارج التقرب و التعبُّد، فيغدو التحدث بتلك المباهج في مجالس الإستئناس و السمر هو الحد الأعلى لسقف ما تصنعه من تغيير فينا ! ...

أذكِّرك .. عليك أن تتحمَّلني و تتحمَّل سطوري؛ فقد قدَّمت لك أنها مجرَّد إزالة لكلفة القراءة، فتوقَّع أي شيء

إذا وافقت على ذلك : فأذكرك أيضاً ألا تتعوَّد على هذا النمط من القراءة لئلا ترتخي عضلاتك القرائية ☺ .

حسناً .. قبل أن أعود لتوضيح ما عنيته في الفقرة السابقة بـ(لا نستثمرها بشكل جيد) ..

دعني أحملك على بساط الخيال قليلاً، إمعاناً في التحليق في عوالم بهجة الإيمانيات و جماليات التعبُّدات ..

هل أنت مستعد ؟!

اربط حزامك تكرماً ..

هل ننطلق الآن .. ؟

بسم الله .. سبحان الذي سخر لنا هذا و ما كنا له مقرنين !

قبل دقائق من كتابة هذه الفقرة – تحديداً– كنت أستمع لقراءة علامة القراءات مولانا الشيخ الزاهد عبد الرشيد صوفي حفظه الله .. و قد منَّ الله عليَّ بالصلاة خلفه ذات يوم .. (استطراد غرضه إشعارُك أني أكتب من وحي اللَّحظة ☺ .. لا يغرنك!)

حسناً .. لنبدأ :

ضع في بالك الآن قائمة تضم أفضل 3 قراء سودانيين تعرفهم ..

هؤلاء الثلاثة أنت تعدُّ الصلاة خلفهم و الإستماع لقراءتهم من نعم الله عليك ..

يمكنك إدخال من ليس معروفاً .. لا بأس .. ضع من شئت في المشهد وواصل .

تخيَّل أنك اعتكفت مع هذا الثلاثي في مسجد واحد، و تناوبوا على الإمامة في صلاة التهجُّد !

دع لخيالك العنان قليلاً و التقط أجمل ما يمكن أن يحدث .. !

صوت نديّ ..

متعة ..

قراءة متدبِّرة ..

انفتاح لمعانٍ جديدة ..

سكينة ..

قُرب ..

حضور قلب ..

..

لنقم معاً برفع سقف الخيال ...

و أرجو منك أن تعيش المشهد بتفاصيله .. بتفاصيله الحيَّة !

تخيَّل أنَّك الآن في المسجد الحرام ...

على بعد زمني قدره 5 دقائق فقط من صلاة التهجُّد ذات ليلةٍ من ليالي العشر الأواخر ...

و أنك في الصف الأوَّل .. الصف الأول في المسجد الحرام ...

و يؤم النَّاس في الركعتين الأوليين صاحب الصوت الندي الشيخ الماهر ماهر المعيقلي ..

ثم يعقبه الشيخ عبد الرشيد صوفي ..

ثم بعدهما (...) أكمل بمن تحب !

بل أترك لك اختيار من شئت لملء خانات أئمة الحرم كما تحب ! .. الليلة ليلتك يا صاح !

هل اكتملت عندك صورة المشهد الحيّ ؟

الكعبة المشرَّفة بين يديك .. بضعة آلاف من البشر يشاركونك الإستعداد للقيام ما بين داعٍ و قائمٍ و راكعٍ و ساجد ..

ترمُق بنظرك مقدمة الصف الأول المستدير حول الكعبة و ترى الأئمة جنباً إلى جنب .. على بعد 6 أمتار عن يسارك

ثم حانت لحظة القيام ...

(استووا، استقيموا) ... تتهادى إليك من سمَّاعات الحرم و أنت في الصف الأوَّل ترقُب المعيقلي يحرك بها شفتيه !

...

لن أسألك (كيف تتوقع أن يكون حال قلبك بعد تسليمك من الوتر تلك اللَّيلة)..

و لا (أي المطالب الأثيرة عند نفسك ستسألها ربَّك حينها في سَجداتِك الثمينة) ..

و لا (كم تتوقَّع من الحسنات التي سيجود بها ربك عليك عند تلك البقعة)

... لكني سأعود لشرح إحالتي السابقة ..

لا أشك أنك تشاركني إجلال هؤلاء البشر المباركين .. و حب نحوٍ مماسبق من مباهج الروح

غير أنني كلّما استوقفتني تلك المشاهد الجليلة من مكة أو المدينة أو القدس، عبر اليوتيوب أو غيره أو استرسلت في استذكار شيءٍ منها يلوح لي معنى عظيم لا أستطيع دفعه أبداً ..

ذلك المعنى هو ما دفعني لكتابة تلك السطور قبل عامين ..

و هو ذاته الذي أيقظ معانيها فيَّ جَذعة لأقوم بالزيادة عليها و أبعثها لك حرّى ..

ما القاسم المشترك بين أولئك الثلاثة الذين تعتبرهم – أنت– كأفضل قراء سودانيين تعرفهم ؟

و مالرابط بين هؤلاء السودانيين و بين المعيقلي و عبد الرشيد ؟

أظن أن استنتاج الرابط ليس صعباً .. إنه ببساطة و اختصار (حفظ القرآن) .. !

بعد تنقلاتنا الخيالية بين أولئك المهرة في مشاهد التعبُّدات .. اسمح لي أن ألفتك إلى زاوية أخرى ..

زاوية لم تلتقطها عدسات القناة السعودية و هي تنقل مشاهد الأكف المرفوعة و العيون الدامعة الملتفة حول الكعبة بإمامة المعيقلي

و لم تلتقطها بعض العدسات القطرية و هي تنقل ليلة الختمة من قيام رمضان بإمامة عبد الرشيد صوفي

و لم تلتقطها عدسة طيبة و هي تنقل دعاء الختمة لشيخنا أبي عمر حفظه الله و متع به ...

زاوية لم أرها أنا نفسي، لكني تلمَّست بعض آثارها على أحد أولئك المباركين ..

حين صلَّيتُ خلف الشيخ عبد الرشيد صوفي ذات فجر، أطال الصلاة و قرأ بمريم أو بعضها – لا أذكر بالضبط – بتمهُّل شديد أمتعنا بها، ثم ألقى كلمة تتلألأ من سُبُحات القُرب عن دوام العلاقة مع الله و خصوصاً بالقرآن ... و لمَّا تيسَّر لي لقاؤه بضعة دقائق كان لسانه لا يكفُّ عن الذِّكر رغم أن بعض الطلبة كان يقرأ عليه جزءً من الشاطبية طلباً لإجازته، فكان يصحِّح له و يواصل ذكره كأنّه في خلوة ! ، بل حتى حين التقطتُ معه صورة (سِلفي) – يال علو همَّتي– ما توقَّف عن الذكر .... حفظه الله ورزقنا من فضله ..

أقول ..

هل خطَرَت لك –وأنت تتلذَّذ بما سبق – الفرصة المتاحة لأحدهم يومياً –في رمضان و غير رمضان– لأن يصلّي القيام بعيداً وحيداً ..

يقرأ "لنفسِه" ما شاء من (كلام الله) !

أو أنه يستطيع متى ما أراد أن يقرأ أيَّ آية أو آيات ..!

أن يتدبّرها .. أن يعيش معها ..

أن يجوب القرآن تفتيشاً من أوَّله إلى آخره بحثاً عن شئٍ في نفسه !

عن جوابٍ لسؤال في صدره ..

عن سُقيا لظمأٍ في إيمانه ..

عند هذه النقطة يقع في النفس قوله عليه الصلاة و السلام :

(لا حَسَد إلا في اثنتين، رجلٌ "آتاه الله القرآنَ" فهو يتلوه آناءَ الليل وآناءَ النهارِ، ورجل آتاه اللهُ مالًا فهو ينفقُه آناءَ الليلِ وآناءَ النهار)

بأبي هو و أمي .. عليه الصلاة و السلام ..

إمام حفَّاظ القرآن .. و لا أظنني أبعد النجعة إن قلت أنه هو عليه الصلاة و السلام أول من يصدق عليه ذلك، فقد كان يدراس القرآن مع جبريل عليه السلام في كلِّ ليلة من رمضان، و كان أجود بالخير من الريح المرسلة .. بما بين جَنبيَّ هو .. عليه أزكى الصلوات و أتمُّ السلام ..

أليس غريباً أن نغفل عن هذا المعنى رغم كثرة وروده علينا – سيما في رمضان –

أعني : (الغبطة على حفظ القرآن) ...

حينما يرهقك البحث عبر الشبكة عن تلاوة قديمة مؤثرة لأحد أولئك الكبار ثم تقع عليها على حين يأس ..

حينما تتعجَّب من رقَّة قلب أحدهم إذا بكى عند آيةٍ لم يفلح حبُّك له في حملك على مشاركته البكاء عندها ..

حين تنبهر إذا قرأ أحد المهرة : (قل تعالوا أتلُ ما حرم ربّكم ، ... عليكم ألا تشركوا به شيئاً)

حين يحبِّرها على مسمعك أحدهم :

(فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون، على الأرائك ، ... ينظرون هل ثوِّب الكفار ما كانوا يفعلون)

حينما تذهلك : (و أنَّا اخترناك، فاستمع لما يوحى) ..

حينما يخبرك من كابد تأرجحات الحفظ و المراجعة أن كامل لوح (إلا تنصوره فقد نصره الله) = ليس فيه مدّ متصل و لا منفصل !

حين يقترب رمضان في كل سنة ثمَّ تبدأ في الإستعداد له بتذكُّر من تعرف من مشاهير القرَّاء و الأئمة في بلدك أو حيّك، و مساجدهم التي يصلون فيها ..

و حينما تصلي خلف من تحب في رمضان لا يفصلك عنه إلا بضعة أمتار ..

حينما يزورك إمام الحرم في بلدك، ثم تنعم بالصلاة خلفه ..

و أخيراً .. حين يشدُّك الشوق لمتابعة بعض مشاهد الصلوات من أقدس ثلاث بِقاع على ظهر الكرة الأرضية .. المسجد الحرام أو المسجد النبوي أو المسجد الأقصى .. فيعظُم في نفسك ذلك المبارك الذي تقدَّم للإمامة لعظمة ما تعلمه من شرف المكان ..

في كلِّ ما سبق .. انتبه لأهمّ ما توفّر في مواصفات أولئك المباركين ..

لا يفوتنَّك تذكُّر الغبطة على حفظ القرآن !

لا يفوتنَّك تذكُّر: (رجل "آتاه الله القرآن") !

افرح بمن شئت، و استمتع بمن شئت، و تمنَّ الصلاة خلف من شئت .. لكن لا يفوتنَّك أن تغبطه على ما عنده القرآن !

أياًكان قدر ما معك من القرآن، و أياًكانت حالك مع القرآن .. فعِّل في نفسك هذا المعنى دائماً متى ما حانت مناسبته، و سترى من نفسك إقبالاً أشد على حفظ القرآن و مراجعة محفوظك منه، و استكمال ما لم تحفظه إن كنت لم تكمله، و تدبِّره و العمل به طمعاً في بلوغ درجة : (رجل "آتاه الله القرآن" فهو يتلوه آناء الليل و آناء النهار) ..

و أنت إذا تأمَّلت قليلاً في هذا التعبير النبويّ تجده جمع بين شيئين؛ أولهما نعمة أن يؤتى المرء القرآن، و ثانيهما نعمة تلاوة القرآن، فجمع بينهما في نسق واحد، وكأن في ذلك إشارة إلى سهولة التلاوة إذاكان القرآن محفوظاً .. (و الله أعلم) .

و تستطيع اختبار ذلك إذا قارنت في قراءتك بين ما تحفظه و ما لا تحفظه .. عندما تقرأ من المصحف .

و من المقارنات التي يمكنك تأملها أيضاً : المقارنة بين حالك مع قراءة الإمام إذاكان يقرأ مما تحفظه، وحالك إذا قرأ من القدر الذي لا تحفظه .. و أذكر أن مولانا الشيخ المربي أبو العلاء مُحَمَّد حسين يعقوب أوصى بالمرور سريعاً قبل التراويح على الجزء الذي سيقرؤه الإمام فيها (عشان متكنش نايم) .

و من المقارنات ذات الصلة التي يمكنك عقدها في هذا السياق = المقارنة بين درجة التدبر في الحالتين .. فلن يفوتك الإنتباه إلى أن ما تحفظه من القرآن أدعى للتدبر و قرب المعاني من ذلك القدر الذي لا تحفظه أو على الأقل لا تضبطه جيداً .. و قد عرض د.خالد اللاحم تشبيهاً جميلاً يوضح الفرق متدبِّر القرآن الحافظ لما يتدبَّره منه و بين المتدبِّر غير الحافظ .. فقال ما فحواه : (أن الأوَّل يشبه المسافر الذي معه زوادته، فمتى ما احتاج تناول منها، و أمَّا الآخر فإنه يحتاج كي يتزوَّد أن ينزل كل مرَّة و يبحث عن الزوادة) .. أو شيئاً نحو ذلك .. راجع (كتاب مفاتح تدبر القرآن و النجاح في الحياة – د.خالد عبد الكريم اللاحم) .

و هذا التشبيه البديع يمنحك مورداً آخر من موارد الغبطة على حفظ القرآن .. فصورة استحواذ المرء على الزوادة تشعل في النفس حرارة الحسرة على الفوت، لتكون بمثابة (محرِّك احتراق داخلي) يدفعك دوماً إلى الأمام لبلوغ معين التمام .

(يبدو التشبيه السابق مناسباً للسياق من الناحية اللفظية فقط، و أما على الحقيقة فيُرجع للإخوة مهندسي الميكانيكا ☺)

ما أبركها من زوادة ! ..

عند لحظات ضعف الإيمان، و في غمرة صراع الأفكار و مناكفة التيارات، و على متن سفينة الدعوة إذا أثقلتها حمولة اليأس من الواقع، و بين دهاليز النفس البشرية المتأبية على الإنقياد ، و حتى عند محكَّات التطبيق الصعبة !

و من الروابط التي يمكن أن يستشفها المتأمل في الحديث : العلاقة بين الحفظ و قيام الليل ... (فهو يتلوه آناء الليل) .. و التلاوة آناء الليل يمكن أن تكون داخل الصلاة أو خارجها، كما أثنى ربنا ﷻ على طائفة من أهل الكتاب فقال (من أهل الكتاب أمَّة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل ...) ، فمن أعظم ما يمكن أن يستثمر به حفظ القرآن هو أن يقوم به صاحبه بالليل، بل من أجلّ النيَّات الصالحة

التي يمكن أن يضعها من يريد حفظ القرآن ضمن قائمة النوايا الصالحة = أن يقوم بما سيحفظه بالليل، و سقا الله أيام البديات الخوالي ، حين كان المرء (يمل) من تكرار قراءة قليل ما يحفظه كل ليلة ! ☺ ... فاللهمَّ ردنا إلى رياض التنعم بوحيك ..

شاهد المقال أيها المفضال : لنجعل من قيام الليل بوّابة لتلقّي بركات ما نحفظه، و لنجعل من تلك البركات حافزاً لنا لنحفظ ما لم نحفظه، أو لنجوّدِ ضبط لما لم نحكم ضبطه، و بهذه الثنائية التبادلية يزداد تعلُّق قلوبنا بالقرآن، و تنطبع معانيه فيها فنرى واقعنا بنور الله، و نرى الأشياء و الأفكار و المعاني على حقيقتها لا كما يريد لنا غيرنا أن نرى . راجع (محاضرة القرآن و الإنسان – د. الهادي بوشيخي)

حسناً .. (أكثرت من هذه الـ"حسناً" لأني لا أملك غيرها ☺)
أيْ أحبتي شباب الدورة الرمضانية المباركة .. كباراً و صغاراً .. معلِّمين و متعلّمين
بل دعني أوسع دائرة الخطاب لأقول : أي شباب المكتبة العلمية .. طلاباً و خريجين ..– و للمزيد من التوسيع متطلبات لا أمتلكها – تبقى مساحة التواصي بالحق و التواصي بالصبر و التعاون على الخير من أبرك مساحات التواصل بيننا على الإطلاق، و بقدر تصحر هذه المساحة و اكتساح مشاغل الدنيا لها تضعف أخوة الإيمان، و لا أظن أنَّ هناك وصيَّة يتواصى بها المتحابون في الله المتآخون فيه أعظم من التواصي على الإقبال على القرآن حفظاً و تلاوة و قياماً بآياته و عملاً بأوامره و تركاً لمناهيه ...
اخوتاه ..
لا يكن شأن أحدنا إثبات أن (حفظ القرآن) ليس فرضاً بدليل و دليلين و ثلاثة، ثم لا يكن في نفسه اجلال لقيمة حفظ القرآن، ولا إجلال لحفظة القرآن، و لا غبطة لهم على ما آتاهم الله من فضله تدفعه – ولو يسيراً – لمحاولة الإقتراب من منازل العلم و النور .
أياً كان مشروعك في الحياة، و مهما كانت خطتك .. أضف إلى قائمة اهتمامك أن تزيد قرباً من القرآن ..
لأنَّك مسلم، و رسالة المسلم في هذا العالم هي رسالة القرآن .. و طموح كل مسلم أن يحكم هذا القرآن العالم (هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الدين كله) ... أقول هذا تذكيراً فقط، و إلا فإنَّ حال العالم اليوم في مسيس الحاجة إلى رسالة القرآن و أنواره و بركاته .. في الطب و الهندسة و الإعلام و الإقتصاد و العلوم الإنسانية و ... في كل شيء ..
و ما أعذب ما نظمه قديماً أستاذ الجيل و حبيبنا و مولانا أبومعاذ حين عبر عن معنىً قريب من هذا فقال :
و النَّميرُ العَذبُ نوَّارُ العطـا ** قاب قوسين من الصَّادِ الظَّمي
أسفي أن يذهبَ الماءُ و قد ** عطِش الكـونُ لِسَلْسالٍ هـَــمِ
زمزمٌ فينا .. و لكن أين مَن ** يُقنع النَّاسَ بجدوى زمـــــزم ؟!

أحبة الخير ..

تتعدَّد اهتماماتنا و مشاريعنا في الحياة، و قد تختلف بعض تفاصيل رؤانا في شؤون الدعوة و التربية و العمل الإسلامي بالجملة، و كثيراً ما تخطفنا المادة و تعيد ترتيب أولوياتنا، لكن الذي لا يمكن أن نختلف عليه أبداً بل هو بوَّابة التقائنا و معقد ارتباطنا = مقرَّرات القرآن،

و لا و الله ما أدري ماذا أكتب بعدُ ..

قد أردته بوحاً فكان شيئاً آخر !

اللهم أحفظ أحبتي من بين أيديهم و من خلفهم و عن أيمانهم و عن شمائلهم و من فوقهم و أعيذهم بعظمتك أن يغتالوا من تحتهم

اللهم خذ بنواصينا إليك أخذ الكرام عليك ..

اللهمَّ ارزقنا جميعاً حفظ كتابك و تدبره و القيام بآياته آناء الليل و العمل به و بث رسالته في الناس

اللهمَّ اجمعنا بإمام الحفَّاظ في دار السلام، و أعلِ منازلنا فيها ببركة أخذنا للقرآن ..

إلهَ الحقِّ يا رب العالمين .

أخوكُم من المكتبة العلمية

18 رمضان 1437 هـ

(*) لم تكن الرسالة المختصرة المنشورة قبل عامين تحمل عنواناً، و قد اختار لها شيخنا أبومُحمَّد الطاهر عنوان (اجعله في صدرك) و نشرت به ضمن السلسلة المذكورة، ولئلا يحدث خلط انتساب آثرت جعلها بدون عنوان .